مجلة الحكمة للدراسات الإجتماعية ISSN :2353 - 0529
المجلد3 ، العدد5، (جانفي2015) EISSN : 2600-643x

الإنتاج السياسي في الوظائف الاجتماعية بالزاوية الجزائرية

الزاوية العلاوية نموذجا

مكناس مختارية -جامعة مصطفى اسطمبولي/ معسكر -

-مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية - قسم علم الاجتماع -

ملخص:

جاءت هذه الدراسة لتبين الدور السياسي للزاوية(العلاوية) من خلال الوظائف الاجتماعية داخل هذا الفضاء الديني ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها مايلي:

- **النسق الاجتماعي** بجميع مؤشراته من مبادئ الطريقة العلاوية.

- **نسق الفعل الطقوسي**:من خلال الممارسات الصوفية.

-**النسق الثقافي والاجتماعي**:من خلال الوظيفة التي تؤديها في المجتمع.

وبالتالي فالزاوية (العلاوية) لم تبقى كمؤسسة تقليدية تساهم في الحقل الديني فقط ،وإنما تعدت إلى الوظيفة السياسية وقد نعتبرها في الوقت الراهن إحدى مؤسسات المجتمع المدني فهي تشكل إحدى رهانات الدولة، فالزاوية في الجزائر ظاهرها ذو بعد ديني وباطنها ذو بعد سياسي.

Résumé :

Cette étude montre le rôle politique de ZAWIYA(ALLAWIYA) à partir des fonctions sociales au d'un espace religieux .Parmi les résultats les plus importants que nous avons obtenu :

-Système social : dans tous les indicateurs de la façon ZAWIA(ALLAWIYA).

-Système acte rituel : d'après les pratique soufies.

-Système culturelle et sociale : d'après la fonction effectuée par la communauté.

Par conséquent ZAWIA(ALLAWIYA) n'est pas resté une institution traditionnelle contribuer au domaine de la religion seulement, mais traversé d'envisager un rôle politique. Est actuellement l'une des institutions de la société civile, il est l'un des enjeux de l'Etat.

Zawiya en Algérie à une dimension religieuse extérieurement tant dis que intérieurement à une dimension politique.

لعل من أبرز المفاجئات التي حملتها نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، خاصة بالنسبة للبعض من المفكرين والباحثين في أوربا..الغربية منها والشرقية،على حد سواء،ولغيرهم من المفكرين والباحثين في بقية أنحاء العالم الأخرى،ومن ضمنها العالم العربي والإسلامي،هي ما اسماه البعض منهم"بالعودة المفاجئة للدين"خاصة،والمقدس عامة،إلى مجتمعات القارة العجوز،وتصاعد الاتجاه نحو الدين،خاصة لدى الشباب، في غيرها من مناطق العالم الأخرى ..وفي مقدمتها العالم العربي والإسلامي،فالظاهرة الدينية تلعب أدوارا اجتماعية مختلفة بحسب سياق تطور النوع الإنساني، ولذلك فإن الدور الذي تلعبه الظاهرة الدينية عند نشأتها في المجتمعات الإنسانية الأولى يختلف عن الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة الآن ،لأن الدين يعتبر من أهم المؤثرات في كافة الأنساق الاجتماعية على اعتبار أنه النسق الفعال والأساسي في تشكل الثقافة وتجانسها، وعليه سوف نحاول تسليط الضوء على إحدى المؤسسات الدينية في المجتمع الجزائري ،ومحاولة الكشف عن الوظيفة الكامنة لهذه البنية التقليدية من خلال الوظائف الاجتماعية، "فالدين عبر التطور التاريخي أنتج مؤسسات خاصة به تطورت ضمن سيرورة سوسيوتاريخية رافقت مختلف التحولات والتغيرات التي عرفتها المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا، وفي بعض الدول العربية(مصر، تونس، المغرب) التي استندت إلى مرجعية دينية واجتماعية وثقافية وحتى سياسية من خلال مؤسسات دينية ذات بعد ثقافي "(أبوقاسم سعد الله،1998:15)، بالإضافة إلى الجزائر التي عرفت مؤسسات ثقافية متنوعة تؤدي أدورا فعالة داخل المجتمع، فهي تحاول جاهدة الالتزام بقضايا الأمة الإسلامية بغية النهوض بها والمساهمة الفعلية في عمليات التغير الاجتماعي ومن بين هذه المؤسسات نجد التعليمية (المساجد،والكتاتيب والزوايا)هذه الأخيرة كما عرفها ابن مرزوق الخطيب"هي المواضع المعدة للإرفاق الموردين

والمحتاجين من القاصدين"(الخطيب ابن مرزوق،10:1981) فقد عرفت انتشارا عبر كامل التراب الجزائري ففي المدن والأرياف وفي الجبال والصحاري وخاصة في غربها ووسطها،ففي الناحية الغربية يرجع الدكتور أبو قاسم سعد الله "سبب كثرتها إلى كثرة الزوايا المرابطين بالمغرب الأقصى وإلى حجاج رحالة المغرب الذين كانوا يعبرون الجزائر ويغذون فكرة المرابطين وينشرون مبادئ رواياتهم وشيوخهم"(صالح مؤيد،2002 :16) ،كما اهتمت بنشر الوعي من خلال نشر الثقافة الصوفية وترسيخ القيم الروحية خاصة في عالم يشهد تحولات عميقة وتخلق فيه الأزمات

(الطاقة، البيئة ، الأخلاقية)، زد على ذلك الدور الاجتماعي الذي يتمثل في حل النزاعات والخلافات بين الأشخاص، وتواصل دورها الاجتماعي المتمثل في تحقيق التماسك بين البنى الاجتماعية بكل أبعادها التربوية والاقتصادية والسياسية، كما "تعتبر الزوايا من أبرز وأهم المؤسسات الاجتماعية والدينية في تاريخ الجزائر ،فمنذ العهد العثماني كان يعمل على تأسيسها في معظم الحالات رجال الدين، إذ ارتبطت الزاوية في البدايات الأولى بمدارس التعليم الإسلامي الحر أولها المدرسة التقليدية ذات التعليم الحر بقيادة كبار الشيوخ الذين تحولوا من شيوخ الزوايا إلى قادة عسكريين، فقد كانت تمثل عملا خيريا دينيا لنشر الثقافة الإسلامية بين أفراد المجتمع الإسلامي"(أبو قاسم سعد الله،1998: 16)ولهذا فقد لعبت دورا كبيرا في نشر التعاليم الدينية سواء على مستوى المدن أو الأرياف ،فالزاوية بهذا المعني يقول جرنس:" تؤهل لوجود حياة دينية واجتماعية متكاملة".(عبد المنعم،1990 :127) ،فقد كانت بالإضافة إلى وظيفتها الدينية معاهد لتعليم الشبان وتنوير العامة ،ومن أشهر هذه الزوايا في تلك الفترة الزاوية القشاشية ،والتي تحولت تدريجيا إلى مدرسة عليا أو معهد حيث كانت تعمل على إيواء الفقراء أو العجزة لتحقيق التكامل الاجتماعي،وهذا ما أكده إميل دوركايم أنه،"**نظام متضامن من المعتقدات والممارسات الخاصة بأشياء مقدسة، أي منفصلة وممنوعة.وبالتالي فإن الدين هو عبارة عن مجموعة من القيم لها صفة الاعتقاد، من قبل أفراد المجتمع ، أي أنه شيء اجتماعي" (Emil . Durkheim, 1990:16)**،ذلك أن الدين هو عبارة عن مؤسسة اجتماعية تأتي من أجل الإبقاء على التكامل الاجتماعي وهذا ما جعل الجيش الفرنسي يحاربها نظرا للوظيفة الكاملة التي كانت تؤديها، من تعبئة الجماهير وتجنيدها

من أجل الدفاع عن ديار الإسلام والمسلمين، وحمايتها من المعتدين،"**فقد كانت في طليعة الجيوش التي وقفت في وجه الحملات الاسبانية والبرتقالية، كما خططت وقادت كل الثورات الشعبية التي قامت ضد الاحتلال الفرنسي في كامل أرجاء الوطن**"(أبو قاسم سعد الله،1998 :17)، من خلال توعية أفراد المجتمع الجزائري، ولكن رغم محاولات الاستعمار على محاربتها وتهجير علماؤها، إلا أنها كانت تنتشر في بعض المناطق النائية وبقيت حتى الفترة الحالية تواصل دورها المتمثل في تحقيق التماسك بين البنى الاجتماعية بكل أبعادها التربوية، والاقتصادية، والسياسية على المستويين الروحي والمادي لأجل تحقيق الهوية والانتماء وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤل الآتي:

هل تؤدي الزاوية دور سياسي؟

انطلاقا مما سبق سنحاول فهم الوظيفة الكامنة(الإنتاج السياسي) لهذا الفضاء الديني من خلال المؤشرات التالية(الدعم السياسي للدولة، المشاركة السياسية(الانتخابات)، الولاء والطاعة للشيخ)

01-الزاوية العلاوية عبر العالم:

يحتل موضوع الصوفية أهمية كبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة ويعد من القضايا الشائكة والمعقدة في تاريخنا الثقافي والديني،والممارسة الصوفية كتجسيد لظاهرة دينية واجتماعية شكلت ذلك الحضور المكثف داخل فضاء المجتمعات المغاربية عموما والمجتمع الجزائري خصوصا،فهي مذهب "متفرد بالمركزية والعمق،وتتصف بالغموض والتشدد،وهذه الخواص الأربع تعكس خصوصيتها وتفردها،ويمكن اختصارها بكلمة واحدة وهي قدسيتها السامية"(مارتن لانغ،2014 :18)، وقد عرفت الجزائر منذ الفتح الإسلامي بأنها دار الهجرة ومستقر الإيمان وذلك بهد أن هاجر إليها وإلى "المنطقة المغاربية الأشراف من أبناء الدوحة النبوية الشريفة(أبناء علي وفاطمة رضي الله عنها) والذي يعرفون في الثقافة الشعبية الجزائرية باسم المرابطين أو المرابط في التعبير الشعبي وحتى الأكاديمي الجزائري هو كل من ينتمي إلى النسب العلوي الشريف هؤلاء الأشراف"المرابطين"الذين هاجروا إلى الجزائر والمنطقة المغاربية هروبا من القمع الأموي

والعباسي وبالتالي كان تأثيرهم في المجتمع الجزائري،وكما ارتبطت بهم مفردات الثقافية الدينية المرابطية (الروحانية) وأسس للمرجعية الصوفية في الجزائر وكانوا بذلك من وراء التعليم الفقهي والصوفي ومن وراء جميع الطرق الصوفية التي ظهرت بعد ذلك في الجزائر وفي المنطقة".(الحداد سعد 2005 :31) ، فقد سيطر الاتجاه الصوفي الطرقي واجتاح مجالات متعددة ، ولم تبق الزواية حكرا على منطقة المغرب بل انتشرت وأصبحت ذو بعد عالمي منها الزاوية العلاوية لأن من خصوصية الصوفية العالمية فقد "أسس الشيخ أحمد العلاوي العشرات من الزوايا في الجزائر والمغرب وتونس ودمشق فقد هاجر مريدي الزاوية في أوائل القرن العشرين إلى أوروبا من أجل العمل فأسسوا أول زاوية في باريس والكائنة في شارع سان جيرمان ثم زاوية ثانية في فيرساي ، ولقد كانوا أول من عمل على هيكلة الجالية المسلمة المهاجرة إلى فرنسا،كما كان لهم الفضل في بناء أول مسجد في أوروبا وقاموا بالعديد من المبادرات لتسهيل الحياة المسلمين مثل إحداث الجمعيات الدعوية،لقد شكلت الزوايا الأوروبية بالنسبة للمريدين والمهاجرين أكثر من مكان للصلاة بل ملتقيات للتحضير فيها ما يصلهم بتقاليدهم ،أما بالنسبة للأروبين الباحثين عن أفق روحي للحياة، فقد كانت الزوايا شاهدة على إسلام حي ومتفتح اندمج كليا في المغرب مع بداية القرن العشرين"(خالد بن تونس ،2009 :202) ،ومن خلال ما تقدم نلاحظ أن الشيخ العلاوي كانت له رؤيا شمولية محاولا نشر الطريقة دون تميز جنسي أو ديني أو عرقي فهو يقول "إن الشيخ على صورة شمعة مشتعلة تستنفذ بإنارة الآخرين إلى أن تخلفها شمعة أخرى" ويقول كذلك" أنا نفس مجردة من كل شيء ،فالروح تحتاج إلى لسان إلى أذنين إلى عينين إلى يدين إنني أبحث عن الجسد، لو وجدت جماعة تترجم عني بلسان الغرب لأدرك الغرب أنه لا يوجد أي شيء يفصله عن الإسلام" (الشيخ العلاوي،2010 :10)،وعليه فالصوفية هي ممارسة رمزية وتجربة مسلكية تمثل رغبة محرقة في الاتصال مع الله وفي الذهاب من الظاهر إلى الباطن ومن المألوف إلى الماورائيات ولا يتم ذلك إلا باستيفاء شروط واختيارات روحية عميقة ولكن تبقى الممارسة الصوفية بما تحمله من أبعاد اجتماعية وثقافية رمزية كذلك،تجربة روحية لا يعرف طبيعتها ولا يفهم كنهها إلا من خاضها وتدرج عبر مسلكياتها وتقيد بشروطها وضوابطها.

02-انتشار الطريقة العلاوية في الجزائر:

كانت الجزائر قبل الاحتلال" تعج بالزوايا التي انتشرت على كامل التراب الجزائري ،ففي المدن والأرياف عاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم ويلقنون أتباعهم الأذكار والأوراد ومبادئ الدين ،مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا مؤثرين العزلة والعبادة،فإذا اشتهر أحدهم بين الناس،أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة،ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قصاده ومريدوه".(الحداد سعاد،2005 :05) وتصبح له طريقة ومن بينها الطريقة العلاوية التي تأسست في عهد الاستعمار الفرنسي، بالجزائر من طرف "الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي سنة1333ه الموافق ل1914م في مدينة مستغانم المقر المركزي للطريقة العلاوية وللزاوية الأم تفرعت عن الطريقة البوزيدية، أي الفرع الأخير للطريقة الشاذلية، الدرقاوية ،فكانت بمثابة حزب تبشيري لمبادئ الإسلام المثلى ،وهي أحدث الطرق الصوفية عهدا وأخرها تأسيسا وأكثرها دقة وتنظيما فقد استعملت، منذ تأسيسها أحدث وسائل الاتصال العصرية وأحسن الأساليب النظامية في نشر العلم،وهداية الناس والدعوة إلى الإسلام ،وبث تعاليم الطريقة ومبادئها كإصدار الجرائد وطبع الكتب،وتنظيم الملتقيات وإلقاء المحاضرات،وإنشاء النوادي والجمعيات للدفاع عن الإسلام والدعوة إليه داخل الوطن وخارجه"(صالح مؤيد العقبي،2002 :271) ،لقد كان أحمد بن مصطفى العلاوي متصوفا، مفكرا،ومصلحا أراد أن يؤسس طريقة صوفية مستقلة عن الشاذلية والبوزيدية من خلال منظومة تربوية وثقافية شاملة يدعو فيها المريدين إلى ضرورة تعلم اللغات الأجنبية بسلام ومحبة وأمن،وبالتالي فهي طريقة رسخ فيها قيم الحوار والتعايش السلمي.

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الطريقة العلاوية تحمل بدون شك بعدا فلسفيا، وتحاول أن تؤسس إنسانا صوفيا منفتحا على الحياة والعصر وهذا ما يميز الثقافة الدينية الصوفية التي تتميز بالفطرية والبساطة والانفتاح على جميع الطبقات والشرائح الاجتماعية بل وحتى على الأخر المختلف الذي لا ينتمي بالضرورة إلى دائرتنا الحضارية.

03-وظائف الزاوية العلاوية:

تعتبر الزاويا والطرق الصوفية في الجزائر ظاهرة اجتماعية ،ومن بين المواضيع الملفتة

للانتباه فالزاوية تمثل مؤسسة تربوية واجتماعية تعمل على إعداد الأجيال ليقوموا بأدوارهم داخل المجتمع الذي يعيشون في إطار نظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التي قد تكون مصدر لكل الأنظمة في إعداد برامجها ،فقد اعتبرت هذه الأخيرة مدرسة دينية ومكان تجمع الصوفيين وتجلت"**كفضاء تعبدي متعدد الوظائف والأدوار فمنها الدور التعليمي المتمثل في نشر الإسلام واللغة العربية فقد اعتبرت مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد علمية في آن واحد**(سعد الله أبو قاسم ، 1998 :20) فهي تمثل قوة الرباط الروحي وجوهر الثقافة الشعبية بجميع مفرداتها الغناء بجميع لهجاته وطبوعه والمديح الصوفي والأمثال الشعبية، أما الدور الاجتماعي تمثل في تدخل الزاوية في مسائل الطلاق، الزواج والبيع والشراء ،وحل مسائل الميراث كما تعتبر دار مجانية للضيافة فالزاوية العلاوية كبنية تمثل الموروث الثقافي الروحي الذي لا يزال يغذي المخيال الاجتماعي وعلى هذا الأساس، فالزاوية العلاوية اليوم تقوم بأدوار متعددة وفاعلة في ظل البناء الاجتماعي ،وذلك من خلال نشاطات ثقافية والإنسانية في الإرشاد والإصلاح ،لأنها تمثل مدرسة روحية تعمل على إعادة التوازن والتخفيف من حدة التوترات النفسية والاجتماعية، من جراء الضغوطات والمتغيرات الطبيعية والثقافية التي يتلقاها الفرد داخل محيطه الاجتماعي"فهذه المؤسسة ارتبط بها تاريخ الجزائر العلمي والثقافي وتاريخها الوطني الجهادي ارتباطا وثيقا فلم يقتصر دورها على التربية والتعليم بل كانت وظائفها أشمل وأوسع فهي معقل تربية وجهاد معهد علم وعمل وموطن تلاوة وذكر ومجلس إصلاح وقضاء"(خالد بن تونس،2009 :40) فالطريقة العلاوية قائمة على المحبة والرحمة والأخوة لأن مجتمعاتنا بحاجة إلى البعد الروحي وترسيخ النزعة الجماعية عن طريق الحرص على إحياء الاحتفالات والمناسبات الدينية كتجسيد للفعل الجمعي المبني على الروحانية أساسها التطهير، ومؤشرات ذلك آداب الجمع وشروطه، كيفية الجلوس، السماع ودلالة لباس المريدات، أدآب التحية ،طقس الخلوة، فهي تركز على مريديها كنماذج في المجتمع، ومن أجل المحافظة على وجودها وضعت آليات لنشر هذه الرسالة من خلال الجمعيات كأداة وصل بين الفضاء المقدس المخصص للممارسة الصوفية وبين المجتمع من أجل الاندماج فيه ،فالزاوية العلاوية تتميز بطابعها الحداثي ومواكبة العصر بطريقة ذات أبعاد إنسانية من خلال التوعية الثقافية للبيئة والتنمية الاقتصادية للمجتمع "فالدولة تسعى إلى الحفاظ على تراث الطريقة العلوية وتعزيز

دورها في تعليم الشباب وقد بدأت المهرجانات في يناير (كانون)2009،بانطلاق"قافلة الأمل"من الجزائر ومرت30دولة مختلفة قبل الوصول إلى مستغانم لعقد المؤتمر النهائي هنالك ومن ثم تابعت القافلة نشاطها من خلال ثلاث مراحل مختلفة كانت تهدف من وراؤها إلى عرض الأنشطة الفنية والثقافية والروحية لقيادات الطرق الصوفية وتعزيز السلام،وتوفير بيئة حوار خصبة مع غيرها من الزوايا والجمعيات والبلديات الموجودة بالجزائر "(بوبكير أمل،2012 :16) ،وهذا يعود بطبيعة الحال إلى ثقافة الشيخ ومكانته عند المريدين و رغم صغر سنه فهو يمثل رمز السلطة والمقدس في نفس الوقت، كما لها وظيفة ثقافية وهذا ما يميزها حيث يقول شيخها **أن "**الزاوية تعالج مشاكل العصر مثل الاحتباس الحراري لأن لديها فرع يسمى جنة العارف يهتم بأمور البيئة وتقوم بالمحافظة على الأنباتية والحيوانية وتوضع في هذا البنك حفاظا عليها من الانقراض، كما تتمتع بنشاط وحركية من خلال محاضرات وأيام دراسية والملتقيات الوطنية والدولية ،تعالج فيها مواضيع العصر مثلا موضوع (الأنوثة) في المجتمع الجزائري ،وذلك بتوسيع نشاطها التوعوي والإرشادي من أجل تصحيح المفاهيم وبناء تصور وطني موحد "(خالد بن تونس)،ومن هنا تظهر الوظيفة الكامنة للزاوية في توعية الشعب حول موضوع حب الوطن والمساهمة في استقراره فنجد شيوخها يحرصون على الانخراط في المجتمع وإنتاج خطاب عصري يواكب روح العصر ومتطلبات الدولة ،ولكنه في جانب أخر تؤطر هذا الخطاب بمرجعيتها الدينية الإسلامية حتى لا تذوب في ثقافة الأخر الذي يصدر خطابه وثقافته بوسائل عصرية متقدمة فالزاوية اليوم مطالبة من أي وقت مضى بإيجاد توازن أو حل لتلك المعادلة التي ظلت تتراوح بين الأصالة (تراث الأمة الإسلامية) مقابل انتاجات العصر ومستجدات الحداثة ،فالزاوية العلاوية أسست جمعية جنة العارف كدعامة للمركز المتوسطي للتنمية المستدامة "إنها المؤسسة الأولى التي يتم إحداثها في الجزائر من قبل المجتمع المدني ويوافق عليها بشكل مباشر رئيس الدولة الجزائرية"(خالد بن تونس،2009 :303) ومن هذا المنطلق يتضح الدعم السياسي لهذه المؤسسة الدينية بمختلف الطرق خاصة وسائل الإعلام بسبب دورها الفعال في المجتمع من أجل تنمية روح المواطنة التي تجمع بين الحق والواجب وتعزيز الشعور بانتمائهم الحضاري ،ولا يكون ذلك إلا بمساندة السلطات المحلية والوطنية وحكمتها هي تطوير البلد من منظور التنمية المستدامة حسب مطالب الدولة كما تعتبر الزواية العلاوية فضاء لبناء

العلاقات الاجتماعية مع شخصيات محلية وعالمية ،كمرجعية هوياتية وبطرق جديدة تعود إلى الرؤية الصوفية التي تشكلت من خلال أطروحات الشيخ خالد بن تونس وهنا يبرز مؤشرات الإنتاج السياسي للزاوية من خلال الأفعال الاجتماعية التي تقام داخل هذا الفضاء الديني "كما يتم تمويلها عن طريق إعانات الدولة والجماعات المحلية ،فقد خصصت الدولة الصندوق الوطني للزوايا للتمويل، وهنا نلاحظ دعم النظام السياسي لها من أجل تمرير إيديولوجية الدولة ومشاريعها أما الدور السياسي فالزاوية كتنظيم قائم بذاته أفرزه الحقل الصوفي بالمغرب العربي وهو أرقى أشكال الممارسة والتنظيم على مستوى الحقل الديني بفضل تعدد وظائفها المختلفة فالزاوية في العهد العثماني كانت كأداة تنظيمية قبلية جد متطورة تقوم بدور ديني مقدس وسياسي دنيوي كنتيجة لنفوذها الاجتماعي ويتبلور الدور السياسي لهذه المؤسسة عندما يكون النظام القبلي المحلي مهددا إما بالسلطة المخزنية وإما بالغزو الأجنبي بما في ذلك الزاوية العلاوية ،فالطرق الصوفية لها تأثير كبير على الحاكمين والمحكومين لذلك يتجنب الحكام الاصطدام بهما لأنهم يتخوفون من أن تسلط عليهم الطبقة العامة"**(مارتن لانغ،2014 :20)**، فالشيوخ في المخيال الاجتماعي هم ممثلين للقداسة المستمدة من الدين لا ينبغي معارضتهم فالسلطة توظف الحركة الصوفية عندما تعجز أو تضعف السلطة السياسية المركزية انطلاقا من خطابها المباشر والمقنع وهذا ما أكده الجابري "توظيف الدين في السياسة إنما يلجأ إليه العقل السياسي للجماعة عندما لا يكون من مصلحتها التعبير عن قضيتها الاجتماعية والاقتصادية تعبيرا صريحا ومطابقا لأن ذلك يفضح الطابع المادي الاستغلالي لتلك القضية أو عندما لا تستطيع تلك الجماعة ذلك بسبب وعيها بنتيجة عدم بلوغها مستوى من التطور يجعلها قادرة على طرح قضيتها الاجتماعية والاقتصادية طرحا مكشوفا"(عابد الجابري،2004 :115) فالمواقف السياسية لم تكن بعيدة عن المؤسسات الدينية الروحية في بلد يكون فيه كل شيء مسيسا أما أثناء المرحلة الاستعمارية فقد كانت تمثل قاعدة دينية ضربت جذورها في أعماق المجتمع الجزائري من أجل المحافظة على الهوية الوطنية والإسلام نظرا لمكانة "الزاوية المرموقة والإحترام الذي كان يحظى به أصحابها فإن أي نداء للجهاد كان يلقى صدى لدى السكان لمحاربة هذا العدو الذي جاءهم باسم الكنيسة لمحاربة دينهم ولغتهم ولعل التركيز على الناحية الروحية كان أقوى من الناحية المادية باعتبار أن الإرتباط الروحي كان أقوى من الإرتباط

المادي إلا أنه مالبثت أن عرفت الفترة الموالية انقساما بين الزوايا ،فمنها من بقي وفيا لمبادئ الجهاد ومنها من سعى لتحقيق أغراض دنيوية أطمعته بها السلطات الفرنسية بالخصوص بعد انتشار المكاتب العربية في كل مكان والتي كانت تحكم العامة بقبضة من حديد على كل نشاط سياسي يمكن أن يقوم به أي فرد ، وعلى كل حركة جهاد يمكن أن تقوم بها طريقة من الطرق الدينية **"(الحداد سعاد،2005 :17)** وعليه ومن حسن الحظ أن زوايا أخرى تحولت إلى مراكز كانت في كثير من الأحيان السبب في تشجيع الأفراد على الثورة وجمع الأموال باسم الدين والدفاع عن أرض الإسلام حتى كتب أرنست مرسييه عام 1869:"إن الطرق الصوفية عدوة لفرنسا بالميلاد ،وأنها أكثر تعصبا،وأنها تشكل أكبر عقبة في طريق التسلط الفرنسي على البلاد (الجزائر)،"(أبوا قاسم سعد الله،1998 :20)أما مرحلة ما بعد الاستقلال "عرفت الزوايا في الجزائر خمولا وتغيبا لفترة زمنية وذلك راجع إلى التقلبات السياسية التي عرفتها البلاد منذ 1965م،حيث اتخذت عدة أشكال مثل الزاوية العلاوية و الرحمانية اللتان كانتا ميدانا للتعليم الديني،وفضاء للممارسات الدينية للكثير من التابعين لأن القيادة السياسية آنذاك كانت توجه اهتمامها إلى بناء الدولة فتغيرت صورة الزوايا بعد الاستقلال وتكلفت الدولة بالتعليم في جميع أطواره بظهور المنظومة التربوية وتأسيس المراكز الثقافية التي حلت محل الزوايا خاصة في عهد الرئيس هواري بومدين الذي عمل على تجميد نشاط الزوايا وكان اهتمامه ينصب إلى بناء الدولة ومشروعه التحديثي الذي طرحه للمجتمع وبعد ذلك الحزب الواحد الذي منع أي تيار من التحدث باسم الدين"(عمر عرباوي،2008 :17)فنجد أن التأميم والهدم والإقامة الجبرية هي العناوين الرئيسية في قاموس تعامل النظام مع هذه المؤسسات الدينية،لأن الإيديولوجية الاشتراكية في تلك الفترة كانت "متعارضة مع التعليم في الزوايا ولكن في الفترة الممتدة من 80 الى90حيث ظهرت مجموعة من التيارات الإسلامية التي حاربتها واعتبرتها أنها بؤر للبدع والشرك كما صرح شيوخ الزوايا بالتهديدات ومحاولة الاعتداء التي تعرضوا لها في ظل موجة العنف التي عاشتها الجزائر فقد خلفت العشرية السوداء شرخا في البنية الاجتماعية ،الثقافية والدينية ،وهذا ما أحدث خللا في بناء المجتمع لم يستطع السياسيون احتواءه فلجئوا إلى محاربة التيار الأصولي(المتطرف) الذي مثلته أحزاب سياسية قامت على أفكار دينية عن طريق إحياء الفكر الصوفي ،حيث تفطن مولود حمروش رئيس الحكومة وأحد

قياديه جبهة التحرير الوطني إلى الدور الذي تلعبه المؤسسات الدينية التقليدية في مواجهة الجبهة الإسلامية للإنقاذ . "(حسن حنفي، 1998 :78) ،ولم تكن عودة الزوايا إلى الساحة السياسية وليدة تلك اللحظة من التاريخ، بل إرهاصات أولى كانت" بدايتها سنة 1983م. وفي شهر ماي 1991م أول انعقاد لندوة وطنية حول الزوايا وهي الفترة التي شهدت تصاعد للمد الاسلاموي وظهور أزمة العشرية السوداء وإيجاد هيئة تهتم بالزوايا والطرق الصوفية والإسراع بإنشاء منصب مفتي الجمهورية وشرطت أن يكون مالكيا ومتصوفا للحفاظ على مرجعية الأمة"(سليمان سليم علي،1999 :216) فقد شهدت فترة رئاسة عبد العزيز بوتفليقة تحولا واهتماما بهذه المؤسسة بالترويج وتركيز وسائل الإعلام على الزاوية أي برز الاهتمام الرسمي لها وأصبحت منذ مطلع التسعينات رهان سياسي إيديولوجي عملت السلطات على توظيفها في مقاومة الإسلام الأصولي المؤدلج منذ "إعلان حالة الطوارئ في 1992 عقب حظر الجبهة الإسلامية للإنقاذ فرضت قيود هائلة على حريات الأحزاب بما يصب في مصلحة الجيش واحتكار الخدمات السرية على الدولة فقط،وفي إطار سياق عجزت فيه المؤسسات الضعيفة عن ضمان تلقي نفس المعاملة أو التمثيل الحقيقي لدى المجتمع،كان هناك تبادل واضح للمصالح بين الرئيس بوتفليقة والزوايا وسانده كذلك عندما أمر بتعديل الدستور في 2008"(بوبكيرأمل،2012 :20)، كما عين على رأس وزارة الشؤون الدينية أحد أبناءها بو عبد الله غلام الله وهو ابن الزاوية، "وقد أدت هذه السياسة الجديدة إلى انتعاش الزوايا وإحياء العديد منها وذلك لمواجهة التيارات الإسلامية القادمة من الشرق ناهيك عن الزيارات المتكررة للرئيس إلى شيوخ الزاوية ،بما فيها الزاوية العلاوية لأخذ (البركة الانتخابية) ومعبرا بذلك عن رغبته في دعم المؤسسات القديمة التي تجسد الإسلام المتفتح والمتسامح، وتكاد تجمع معظم التحليلات السياسية والإعلامية على أن هدف الرئيس من دعم السلطة الحاكمة للطرق الصوفية وإعادة تفعيلها على الساحة السياسية والدينية من خلال منظور التحليل الوظيفي قد تكون هذه الظاهرة هي الحفاظ على استقرار المجتمع وخلق نوع من الانسجام بين أفراده"(حسن حنفي،1998 :15) فقد حاولت الزوايا من خلال دعم بوتفليقة أن تحافظ على الوضع السياسي الذي أيد اعادة ظهورها مرة أخرى على الساحة، أما الوظيفة الكامنة فتظهر مباشرة في ما يوفره الخطاب الصوفي من قيم الطاعة والولاء والخضوع للشيخ، وهذا ما "أكده محمد أركون أن دخول مؤسسات

الزوايا كعنصر في البنية الدينية كان عاملا في إعطاء مكانة رمزية للشيخ عن طريق إعادة إنتاج تعاليم مؤسسيها ومرابطها بشكل حرفي مما أدى إلى قراءة متكررة للتراث الإسلامي ،ومن ثم المحاكاتية بين رؤساء الزوايا المتنافسة ،مادام الهدف واحد ألا وهو توسيع مجال السيطرة الدينية والسياسية" **(محمد أركون ،1987 :79)**وهذا ما لمسناه في الزاوية كفضاء ديني فهي تحتوي على هيئات سياسية للوصول إلى السلطة فمعظم أفرادها مثقفون عضويين وليس تقليدين حسب قرامشي، وهذا ما يؤكده كذلك أركون"**من يملك المشروعية الدينية يمتلك السلطة وكل شيء فلا مشروعية سياسية بدون مشروعية دينية"**(محمد أركون،بدون سنة :15) فالنشاط الديني لأعضاء الزاوية لم يمنعهم من الممارسة السياسية لأن الدين يلعب دور مهم في التنظيم الاجتماعي ،لذلك شغلت قضية الدين حيزا كبيرا في الفكر والواقع السياسي خاصة بعد الاستقلال" فتزايد الاهتمام بموقع الدين في السياسة والحياة اليومية وعن كيفية تسييس الدين لأنه له مكانة ودور في النهضة والتقدم والرقي ،وهذا ما إن الدين يرافق كل تعبئة سياسية فقد شغل مختلف المناسبات بجلب المؤيدين والناخبين والممارسين السياسيين ،و في كثير من المناسبات السياسية (الانتخابات على وجه الخصوص) فالزاوية تعتبر أداة واسطة بين الشعب والسلطة فهي فاعلا مهما في هذه العملية (نقصد بذلك العملية السياسية) خاصة في إمالة الكف لصالح مترشح معين أو فرد من أعضاءها أو حزب أخر فقد أصبح الكثير من السياسيين يلجئون إليها " (حسن حنفي،1998 :120) ،وهذا ما لاحظناه في كثير من الانتخابات المحلية والتشريعية على المستوى المحلي والوطني منها العهدة الثانية للرئيس بوتفليقة و العهدة الثالثة والتي لعبت فيها الزاوية كمؤسسة ثقافية ورمزية مقدسة دورا هاما في الحملة الانتخابية الرئاسية، لقد استعمل الدين الشعبي المتمثل في المزارات والزوايا والطرفية لمحاربة الحركات الدينية و نظرا لأهمية الأضرحة والمناسبات الدينية في نفوس الأفراد ولأن المجتمع الجزائري عاطفي فلعبت الدولة على هذا الوتر الديني فكثيرا ما تتصالح المؤسسات الدينية الرسمية معها "كما قامت السلطات المختلفة وبعض العائلات باستغلال الدين لمأربها الخاصة حيث تمكنت في بعض الظروف أن تستغل الدين الشعبي لمصلحتها بإخضاع الشعب وإلهامه باللجوء إلى الأولياء وتفويض أمره لهم بدلا من مواجهة الواقع والاعتماد على طاقتهم الخاصة ، فحسب العارفين بالتركيبة التي بنيت عليها الزوايا منذ الفترة الاستعمارية يعرفون جيدا

أنها لم ولن تكون أبدا خارج المنافسة السياسية ،وكثيرا ما تستغل لتمرير العديد من الخطابات السياسية فكل مشايخ الزوايا والقائمين على مثل هذه التظاهرات يصبحون في شكل تناغم مع السلطة المركزية خاصة السلطات المحلية والمنتخبين المحليين الذين يجدون نوع من الفضاء السياسي المؤطر بالمقدس لكسب المزيد من الدعم السياسي لأنها فرصة تجمع أكبر عدد ممكن من الناس فهي منبر إعلامي رمزي واستراتيجي لتمرير الخطاب السياسي والاديولوجي للسلطة وشرح البرامج المختلفة لذلك نجد رجال السياسة يقدمون لهم الدعم"(صلاح سالم ،1991 :268) فالدولة تراهن على دعم هذه المؤسسات وتوظيفها أيديولوجيا في مواجهة التيارات الدينية التي تهدد الاستقرار السياسي، فهي تقوم بتأمين الطرقات وتعبيدها وترميم الأضرحة والزوايا وتقديم التبرعات من الأعيان السياسيين ويتضح ذلك من خلال التنسيق بين أعضاء الزاوية والمسئولين المحلين لما لديهم مكانة الزعيم بين الناس(زعامة روحية ورمزية) خاصة لشيخ الطريقة كما أصبح لهم دور اجتماعي وسياسي وديني في مجتمعهم فحسب عبد الله حمودي لقد كان "للزاوية والشرفاء والصالحين دور هام في بناء المجتمع والعملية السياسية ولو بطريقة غير مباشرة بحيث أن الخضوع والإخلاص الذي يظهره المواطن لمثل هذه التنظيمات التي بدورها تضمن له الحماية والرعاية يبدو جليا ومتأصلا في المجتمع الجزائري فعناصر"المحبة"أو التعلق كما يذكر حمودي في دراسة الشيخ والمريد"تكرس مثل هذه التبعية الرمزية الدينية كالأولياء والصوفيين وهذا ما يسميه حمودي دائما بالأشكال التعاقدية الضمنية"(عبد المنعم القاسمي،2013 :45) ومن ثم نلاحظ توظيف الخطاب الديني لإضفاء الشرعية الدينية للسلطة الحاكمة فالسلطة السياسية توظف الدين لإضفاء القداسة على سلطتها والقائمين عليها لأنها تأخذ بعين الاعتبار أن الدين هو روح المجتمعات لأن من يعرف أمور الدين يتغلغل إلى روح المجتمعات وطالما أن الشيخ يمتلك هذه الميزة لذلك تسعى الدولة إلى دعمه وتوظيفه لخدمة مصالحها بمختلف الطرق والوسائل ومنه قامت بفرض شرعيتها ونفوذها محليا ،"من خلال المؤسسات الخيرية والترفيهية والاحتفالات الواسعة التي تقيمها وتجمع من خلالها الموارد المالية والتبرعات المؤسسية أحيانا تفرض رسوم للدخول يطالب الأتباع بدفع أي مساهمات مالية مساعدة منهم في تنظيم المهرجانات غير أنها في معظم الأوقات يتم تمويلها مباشرة من قبل مؤسسات الدولة مثل وزارات الثقافة أو الشؤون الإسلامية

ويأتي تنظيم مثل هذه الفعاليات تحت رعاية الرئيس مؤشرا لتوجه الدولة في إعادة طرح الصوفية من جديد كجزء من الهوية"(بوبكير أمل،2012 :27) ومن خلال ظهور شيوخ الصوفية الآن بشكل منتظم من خلال البرامج الدينية التي تبث عبر الراديو أو التلفزيون الجزائري فالزاوية كمؤسسة تعتبر أداة وقناة لتمرير الخطاب الأيديولوجي وتحقيق الولاء السياسي وتعزيز القناعات الفردية والجماعية .

وبالتالي فظهور التصوف كحركة أو كمؤسسة كان له بعد سياسي كما ذكرنا سابقا أي ظهور وغياب الزاوية اليوم مرتبط بموقف سياسي بالدرجة الأولى وهذا ما يؤكده جورج بالانديه"**أن المقدس هو أحد أبعاد الحقل السياسي ويمكن أن يكون أداة للسلطة وضامنا لشرعيتها، وإحدى الوسائل المستخدمة في إطار المنافسات السياسية**"(بالانديه جورج،1986 :93) ومن هنا يمكن أن نعتبر عودة الإعلامية للصوفية في الجزائر كانت مقترنة بعودة الصوفية في العالم وذلك كرد فعل على ما فرزته العصرنة(retour de religion) المرتبطة بعودة الظاهرة الدينية والتطور التكنولوجي ووسائل التحديث ،مما جعل الإنسان يتجه نحو الفر دانية،والنزعة المادية وبعد" أحداث الحادي عشر من سبتمبر،حيث عمدوا إلى البحث عن أساليب جديدة للحد من نفوذ الجماعات التابعة لتنظيم القاعدة أو مايطلقون عليه مسمى"المسلمون المتطرفون مثل الجماعات المرتبطة بالحركة الوهابية ،وعليه قاموا بمضاعفة مبادرات الدعم العامة وإقامة المؤتمرات التي تناقش دور قيادات الصوفية المحتمل في ترسيخ الديمقراطية"(بوبكير أمل،2012 :30) وكذلك نتيجة الفراغ الروحي الذي أصبح يعيشه الإنسان المعاصر، قد أدى إلى ظهور تيار عالمي يدعو إلى ضرورة العودة إلى الدين الذي يمثله التيار الروحي كتيار مؤهل للحوار والتعايش بين الأديان والحضارات والثقافات بعيدا عن كل الصدمات والصراعات. فالزاوية الجزائرية بمختلف تسميتها ومصادرها التأسيسية تمكنت وبقوتها الذاتية وحنكتها في التعامل مع الأحداث والتطورات فتحولت وظائف الزاوية إلى إستراتيجية تتماشى مع التغيرات الراهنة في المجتمع الجزائري خاصة والدول العربية عامة، بما يحفظ لها رسالتها ودورها الديني المرتبط بالوجود الاجتماعي في ثوابته ومتغيراته كما قد يستغل الديني السياسي لتوسيع فضاءه وتحقيق أغراضه.

قائمة المراجع:

1.أبو قاسم سعد الله،(1998)،**تاريخ الجز ائر الثقافي ج1،ج2**،دار الغرب.

2 .ابن المرزوق التلمساني،(1981)،**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن** ،المؤسسة الوطنية للنشر،الجزائر.

3.أحمد بن المصطفى العلاوي،(1986)،**البلاغ الجز ائري**،ج1،دار النشرالمهدية،ط1،طنجة(المغرب).

4.الحدادسعاد،(2005)،**دور الزو ايا في مقاومة الاحتلال الفرنسي،المركز الوطني للدراسات والبحث** (وزارة المجاهدين)،د.ط،وهران.

5.بوبكير أمل،(2012)،**التصوف والحداثة في دول المغرب العرب**ي،ط1،المسبار مركز الدراسات والبحوث ،الجزائر.

6.سليمان سليم علي الدين، (1999)، **التصوف الإسلامي**، د.ط، بيروت، دار نوفل للنشر.

7.صلاح سالم،(1991)،**تجليات العقل السياسي ومستقبل النظام العربي**،د.ط،القاهرة،دار قباء للطباعة والنشر.

8.جورج بالانديه ،(1686)،**أنثروبولوجيا السياسية**،ترجمة،جورج أبو صالح د.ط،بيروت،مركز الإنماء القومي.

9.عبد المنعم منال، (1990)، **التصوف في مصر والمغرب**، ط1، الإسكندرية، منشأة المعارف للنشر.

10.مؤيد العقبي صالح،(1999)،**علم الاجتماع:الموضوع والمنهج**،ط1،عمان،دار مجدلاوي للنشر.

11.محمد عابد الجابري،(2004)،**الدين والدولة وتطبيق الشريعة**،مركز الدراسات الوحدة العربية للنشر،ط2،بيروت(لبنان).

12.محمد آركون،(دون سنة) ترجمة،بهيج شعبان ،**تحرير الوعي الاسلامي،نحو الخروج من السياجات الدوغمائية**، ،ط1،بيروت(لبنان).

مارتن لانغ،ترجمة (فاروق الحميد)،(2014)،**ماالصوفية**،ط1،دار الفرقد للنشر ،دمشق،سورية.

13.عمر عرباوي(2008)،**التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة**،الجامعة الإفريقية العقيد أحمد أدرار.

14.حسن حنفي، (1998)، **في الثقافة السياسية أراء حول أزمة الفكر والممارسة في الوطن العربي**،د.ط، دمشق، دار علاء الدين للنشر.

15. ملتقى التكوين (2010)،**حول السيرة في الطريقة العلاوية**،جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية بوهران.

المو اقع الإلكترونية:

15.عبد المنعم القاسمي الحسني،**التصوف والصوفية في الجز ائر**،مجلة الشهاب www.almahdi.net/vb/show thread.php.1.01.213

المراجع باللغة الفرنسية:

1 .Durkheim .Emil(1990) .**les formes élémentaires de la vie religieuse**, presse universitaire de France.

2.KHALED bentounes(2009)**le soufoulisme, Cœur de l'islam.** el.Alamein, Setif.